

تفسير ابن كثير

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ^طحَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ^طوَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ^جحَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ^طإِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين ، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن ، كقوله : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) [الإسراء : 23] وقال : (أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير) [لقمان : 14] ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وقال هاهنا : (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا) أي : أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة ، أخبرني سماك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : قالت أم سعد لسعد : أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين ، فلا آكل طعاما ، ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله . فامتنعت من الطعام والشراب ، حتى جعلوا يفتحون

فأما بالعصا ، ونزلت هذه الآية : (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) الآية [العنكبوت : 8]

.ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه ، من حديث شعبة بإسناده ، نحوه وأطول منه .

حملته أمه كرها) أي : قاست بسببه في حال حملة مشقة وتعبا ، من وحام وغشيان

وثقل وكرب ، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ، (ووضعت كرها) أي

: بمشقة أيضا من الطلق وشدته ، (وحملة وفصاله ثلاثون شهرا) وقد استدل علي ، رضي

الله عنه ، بهذه الآية مع التي في لقمان : (وفصاله في عامين) [لقمان : 14] ، وقوله :

(والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) [البقرة : 233]

، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوي صحيح . ووافقه عليه عثمان

وجماعة من الصحابة ، رضي الله عنهم . قال محمد بن إسحاق بن يسار ، عن يزيد بن

عبد الله بن قسيط ، عن بعجة بن عبد الله الجهني قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة ،

فولدت له لتمام ستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له ، فبعث إليها ، فلما

قامت لتلبس ثيابها بكى أختها ، فقالت : ما يبكيك ؟ ! فوالله ما التبس بي أحد من خلق

الله غيره قط ، فيقضي الله في ما شاء . فلما أتى بها عثمان أمر برجمها ، فبلغ ذلك عليا

فأتاه ، فقال له : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماما لسته أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ فقال له [علي] أما تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قال : أما سمعت الله يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) وقال : ([يرضعن أولادهن] حولين كاملين) ، فلم نجده بقي إلا ستة أشهر ، قال : فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا ، علي بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها ، قال : فقال بعجة : فوالله ما الغراب بالغراب ، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه . فلما رآه أبوه قال : ابني إني والله لا أشك فيه ، قال : وأبلاه الله بهذه القرحة قرحة الأكلة ، فما زالت تأكله حتى مات . رواه ابن أبي حاتم ، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله : (فأنا أول العابدين) [الزخرف : 81] . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أي ، حدثنا فروة بن أبي المغراء ، حدثنا علي بن مسهر ، عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرا ، وإذا وضعت له سبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا وضعت له ستة أشهر فحولين كاملين ؛ لأن الله تعالى يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) (حتى إذا بلغ أشده) أي : قوي وشب وارتجل (وبلغ أربعين سنة) أي : تنهى عقله وكمّل فهمه وحلمه . ويقال : إنه لا يتغير

غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين .قال أبو بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن القاسم بن عبد الرحمن قال : قلت لمسروق : متى يؤخذ الرجل بذنوبه ؟ قال : إذا بلغت الأربعين ، فخذ حذرك .وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا عبيد الله القواريري ، حدثنا عزرة بن قيس الأزدي - وكان قد بلغ مائة سنة - حدثنا أبو الحسن السلوي عنه وزادني قال : قال محمد بن عمرو بن عثمان ، عن عثمان ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله حسابه ، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه ، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء ، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسناته ومحا سيئاته ، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفعه الله في أهل بيته ، وكتب في السماء أسير الله في أرضه " .وقد روي هذا من غير هذا الوجه ، وهو في مسند الإمام أحمد .وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق : تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس ، ثم تركتها حياء من الله ، عز وجل .وما أحسن قول الشاعر :صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل : ابطل (قال رب أوزعني) أي : ألهمني (أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي

وأن أعمل صالحاً ترضاه (أي : في المستقبل ، (وأصلح لي في ذريتي) أي : نسلي
وعقبتي ، (إني تبت إليك وإني من المسلمين) وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد
التوبة والإنابة إلى الله ، عز وجل ، ويعزم عليها . وقد روى أبو داود في سننه ، عن ابن
مسعود ، رضي الله عنه ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يعلمهم أن يقولوا
في التشهد : " اللهم ، ألف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجنا من
الظلمات إلى النور ، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا في أسماعنا
وأبصارنا وقلوبنا ، وأزواجنا ، وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجعلنا
شاكرين لنعمتك ، مثنين بها قابليها ، وأتممها علينا " .